

## المغرب على عهد الدويلات المستقلة ( عهد الدويلات المستقلة الثاني )

### أولا : الدولة الزييرية

قدمت قبيلة صنهاجة خدمات جليلة للفاطميين (العبيديين ) الشيعة ببلاذ المغرب ، سيما مساعدتهم في القضاء على ثورة أبي يزيد الخارجي ، وبذلك أكرم المنصور زيري بن مناد وعيّنه أميرا على قومه ، بعدها عين الخليفة الفاطمي المعز لدين الله بلكين بن زيري بن مناد عاملا على أشير والمسيلة وتاهرت ، وبعد رحيل الفاطميين إلى مصر استقدم المعز بلكين بن زيري إلى المهديّة وعين إياه واليا على المغرب وبذلك تبدأ الدولة الزييرية سنة 361 هـ .

عين المعز لدين الله الفاطمي بلكين بن زيري رسميا على ولاية المغرب وسماه يوسف وكنّاه أبا الفتوح ووصله بالخلع والأكسية الفاخرة وأمره بان يغزو المغربين الأوسط والأقصى ليعود إلى طاعة الفاطميين فسار أبو الفتوح (بلكين) في جيشه فدخل تاهرت ثم تلمسان ثم عاد إلى القيروان ثم توجه إلى المغرب الأقصى سنة 367 هـ وحاصر سبتة دون جدوى فتوجه إلى فاس واستولى عليها 368 هـ ثم سجلماسة ثم غزا أصيلا وبرغواطة وتوفي في 373 هـ .

خلفه ابنه أبو الفتح منصور بن بلكين فأرسل ابنه لغزو المغرب الأقصى فانهزم وقامت في عهده ثورة أبو الفهم الخراساني الداعي سنة 376 هـ وأيدته قبائل كتامة لكنه قتل ، ثم قامت ثورة الهيار بن زيري في تاهرت سنة 379 هـ فأفشلها المنصور وتوفي المنصور سنة 386 هـ فخلفه ابنه باديس بن المنصور (عمره 12 سنة) فعين عمه حماد على أشير ، ودخل في حرب مع زيري بن عطية الذي هزم الزيريين واخذ منهم تاهرت 389 هـ ، كما أرسل باديس عمه حماد لمقاتلة الزناتيين سنة 395 هـ نواحي المسيلة وأشير فانتصر حماد وبعدها لجا إلى أبي طويل واختط بها القلعة وشيد القصور ودخل في خلاف مع باديس واستقل حماد بالقلعة وخلع طاعة الفاطميين ودعا للعباسيين سنة 405 هـ ثم توجه إلى محاربة عمه في 406 هـ فانتصر المنصور وانهزم حماد وتحصن بالقلعة وفي هذه السنة توفي أمير الزيريين باديس فخلفه ابنه المعز.

بويج المعز بن باديس بالإمارة سنة 406 هـ . وعمره ثمان سنين وسبعة أشهر ودخل في حرب مع حماد 408 هـ فانتصر المعز وتحصن حماد ثانية بالقلعة ، ثم تصالح المعز مع حماد .

لقد كان هذا الصلح اعترافا بالدولة الحمادية في القلعة وبذلك انقسمت دولة الصنهاجيين إلى قسمين زييين بالمغرب الأدنى وحماديين بالمغرب الأوسط . نبذ المعز المذهب الشيعي واعتنق المذهب السني المالكي ثم اضطهد الشيعة فقتل منهم ما قتل وهرب من هرب .

على الرغم ما حاق بالشيعة ، حرص الفاطميون في مصر على استرضاء المعز في البداية . غير أن المعز بن باديس قطع التبعية للفواطم العبيديين رسميا سنة 440 هـ ( عذارى وابن خلدون ) وقيل 443 ( المقريزي وتغري بردي ) ، وعن ذلك يقول ابن عذاري : >> وحكي في قتل الروافض حكايات كثيرة مما رآه المعز في منامه ، وتأويل ذلك وغيره ألغينا هنا عن ذكره ، ولم يزل المعز يعمل فكره في قطع الدعوة لهم إلى أن كانت سنة 440 هـ >> <sup>1</sup> .

حرّض الفاطميون عرب بني هلال على غزو المغرب فتوجهوا إليها وهزموا المعز في معركة حيدران (قرب قابس) سنة 443 هـ ، ونهب الهالليون المال والمتاع وقتلوا من الصنهاجين الكثير وحاصروا القيروان واستولوا على قسنطينة وباجة وتونس وبونة ، ثم دخل العرب القيروان وخرّبوها 449 هـ وتوجه المعز إلى المهديّة وقضى بقية أيامه حزينا .

يصف ابن خلدون صنيع الهالبيين بقوله : >> وتقدموا إلى البلاد ( أي عرب بني هلال ) وافسدوا السابلة والقرى وسرح إليهم المعز جيوشه فهزموهم ، فنهض إليهم ولقيهم بجبل حيدران فهزموه ، واعتصم بالقيروان فحاصروه وتمرسوا به وطال عيبتهم في البلاد وإضرارهم بالرعايا إلى أن خربت افريقية >> <sup>2</sup> . وقد توفي المعز بن باديس سنة 454 هـ على رواية ابن عذاري وابن خلدون ، غير أن النويري قال بوفاته سنة 553 هـ ، وخلفه ابنه تميم .

<sup>1</sup> ابن عذاري المراكشي : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 274 .

<sup>2</sup> عبد الرحمن ابن خلدون : المصدر السابق ، ج 6 ، ص 211 .

تولى تميم بن المعز الإمارة في 454 هـ وواجه عرب بنو سليم في كثير من مناطق افريقية وقد ثار عليه أهل سوسة وتونس دون جدوى كما منع الهلاليين من الاستيلاء على المهديّة وهادن أبناء عمومته الحماديين ، غير أن في عهد تميم تعرضت افريقية إلى هجمات من أهل جنوة وبيزا سنة 480 هـ واستولوا على المهديّة وزويلة وقتلوا الساكنة هناك ، ففاوضهم تميم وقدم لهم مبلغا من المال مائة ألف دينار فاقبلوا عن افريقية لكنهم عاودوا الهجوم سنة 498 هـ لكن أسطول المهديّة هزمهم .

في سنة 501 هـ صار يحيى بن تميم أميرا فثار أهل صفاقس فلطّف الحيلة في تفريق كلمتهم ، وقد صرف همّه إلى غزو النصارى والأساطيل البحرية فاستكثر منها وإستبغ في اقتنائها ، وردد البعوث إلى دار الحرب حتى اتقته أمم النصارى بالجزية من وراء البحر وكان له في ذلك آثار ظاهرة عزيزة ، وكان حسن السيرة في رعيته عادلا فيها ضابطا لأموار دولته مدبرا لجميع أحواله ، رحيفا بالضعفاء والفقراء كثير الصدقة محبا لأهل العلم والفضل إلى أن وافته المنية فجأة فخلفه علي بن يحيى الذي قضى على التمردات في عهده ، فنهض إلى حصار تونس حتى استقام احمد بن خرايان ( وذكر محقق الكتاب أن اسمه قد يكون احمد بن خراسان ) ، كما فتح جبل وسلات وأرسل له الفاطميون من مصر بالهدايا والمخاطبات إلى أن توفي سنة 515 هـ ، غير أن ابن عذاري المراكشي قال فيه : >> فاستثبت له الأمر واستوسق له الملك ، وكان جوادا كريما ، يركن إلى الراحة واللذات ، واتكل على قوم فوّض إليهم تدبير دولته فعاجلته منيته في ربيع الآخر سنة 515 هـ >> <sup>3</sup> .

آل الحكم بعدئذ إلى الحسن بن علي الذي استولى الفرنج في عهده على جزيرة جربة سنة 529 هـ وغنموا الأموال وسبوا النساء والأطفال وهلك أكثر رجالها ، واستولى روجار صاحب صقلية على طرابلس سنة 541 هـ فقتل وسبى ، وفي سنة 543 هـ أصاب البلاد قحط وكثر الموت في الناس واكل بعضهم بعضا وعم الفناء فاغتنم روجار هذا الفرصة وهجم على المهديّة وسفاقس وسوسة ولم تنزل الأمور

<sup>3</sup> ابن عذاري المراكشي : المصدر السابق ، ج 1 ، ص 306 .

كذلك حتى زال حكم الزييريين سنة 543 هـ ، أما الحسن بن علي فقد التحق  
بجزائر بني مزغنة حتى ضمها الموحدون إليهم .

## ثانيا : الدولة الحمادية .

هي شعبة من آل زييري حيث ولى باديس بن المنصور عمه حماد على المغرب  
الأوسط فاستقامت له الأمور وقاتل الزناتيين لكنه أثر أن يستقل بملكه فبنى  
القلعة في 398 هـ وأتم تحصينها كما رفض التبعية إلى الشيعة ونقض البيعة في  
405 هـ ودعا للخلافة العباسية ، وقد استمر في حربه مع أبناء عمومته الزييريين إلى  
أن اعترفوا بملكه بعد أن يئسوا من حربه في عهد المعز بن باديس .  
امتدت الدولة الحمادية في الجنوب إلى اورجلان (ورقلة) وفي الشمال واقعة  
بين ملك أبناء عمومتها المرابطيين من الغرب والزييريين من الشرق . لما توفي حماد في  
419 هـ خلفه ابنه القائد الذي كان سديد الرأي حسن السيرة استقام له أمر  
المغرب الأوسط وواصل تنصله من الطاعة للفاطميين وتوفي في 446 هـ فخلفه ابنه  
محسن الذي لم ينعم بالحكم سوى تسعة أشهر فقتله بلكين بن محمد بن حماد  
سنة 447 هـ وقد كان بلكين هذا سفاكا للدماء فقتل كذلك وزير ابن أخيه محسن  
وقتل والي بسكرة ثم ناميرت بنت عمه علناس وقد حارب المرابطيين فاستولى على  
فاس (سنة 454 هـ) واحتمل من أكابرها وأشرفها رهنا على الطاعة ، وانكفأ راجعا  
إلى القلعة حيث قتله الناصر بن علناس واستولى على الحكم بعده ، وعاود ضم  
بسكرة التي خلعت الطاعة لآل حماد والذي نقل عاصمة ملك الحماديين من  
القلعة إلى بجاية الناصرية بعد أن تفقد الموقع وأعجبه فرسم المدينة والصناعة  
والميناء وأقام بمحاذاتها قصر اللؤلؤة الرائع ثم انتقل إليها في 461 هـ ، وقد استفحل  
ملك الحماديين أيام الناصر بن علناس فتوسع على حساب أبناء عمومته الزييريين  
وبنى المباني العجيبة المونقة وردد الغزو إلى المغرب وتوغل فيهم إلى أن توفي في 481  
هـ .

بعد وفاة الناصر بن علناس خلفه ابنه المنصور الذي كان مولعا بالبناء  
فأسس جامع بجاية وخطط المباني وشيد القصور (المنار ، الكوكب ، السلام ...)

وحارب المرابطين وحاصر تلمسان سنة 476 هـ وعاشت عساكره فيها ، فخرجت إليه حوا زوجة تاشفين أمير تلمسان متدممة راغبة في الإبقاء متوسلة بوشائج الصنهاجية ، فاكبر قصدها إليه وأكرم موصلها وأفرج عنهم وانكفأ راجعا بقواته ثم وغزا كثيرا من المناطق أثنى فيها كالزاب والمغرب والأوسط وغيرها وتوفي 498 هـ . فخلفه ابنه باديس الذي كان شديد البأس لكن حكمه لم يدم سوى سنة واحدة فتوفي وخلفه أخوه العزيز الذي صالح قبائل زناتة وكانت أيامه هدنة وأمنا، وكان العلماء يتناظرون في مجلسه ونازل جربة فأطاعته ونازل تونس فصالحته ، لكن >> كبس العرب في أيامه على القلعة وهم غارون فاكتسحوا جميع ما وجدوه بطواهرها ، وعظّم عيئهم << ، وتوفي العزيز سنة 515 هـ .

تولى الحكم بعد العزيز المتوفى ابنه يحيى والذي قضى حياته بين اللهو والصيد لكنه سك العملة باسمه ، غير أن جيوش عبد المؤمن الموحي تمكن من دخول بجاية ، ثم استولت على قلعة بني حماد ، واضطريحي آخر حكام الحماديين إلى مبايعة عبد المؤمن بن علي حاكم الموحيين سنة 547 هـ ، وبذلك ينقرض حكم بني حماد ، وأما عن مصير يحيى فقد اخذ الأمان لنفسه عند الموحيين فنقلوه إلى مراكش فسكنها وانتقل إلى مدينة سلا عام 548 ليتوفاه الأجل في ذات السنة .

### ثالثا : الدولة المرابطية ( المُلْتَمُون ) .

المرابطون من قبيلة صنهاجة فقد ذكرهم أبو عبيد الله البكري - وهو من المصادر الهامة المؤرخة لنشوء هذه الدولة - بقوله : >> قبيل من صنهاجة يعرفون ببني لمتونة ظلوا عن رحالة في الصحراء مراحلهم فيه مسيرة شهرين ما بين بلاد السودان وبلاد الإسلام... وهم إلى بلاد السودان أقرب... ليس يعرفون حرثا ولا زرا ولا خبزا، إنما أموالهم الأنعام وعيشهم من اللحم واللبن، ينفذ عمر أحدهم وما رأى

خبزا ولا أكله، إلا أن يمر بهم التجار من بلاد الإسلام أو بلاد السودان يطعمونهم الخبز ويتحفونهم بالدقيق، وهم على السنة مجاهدون >> <sup>4</sup>.

إسم المرابطين مشتق من كلمة المرابطة ومعناها المسلمون الورعون المنقطعون للعبادة في المكان الذي يسمى الرباط ، والرباط عند ابن منظور هو الإقامة على جهاد العدو. وقد أقام الفقيه عبد الله بن ياسين قرب حوض نهر السنغال رباطا للعبادة وحفظ القرآن وتفسيره ولم يكن الفقيه ابن ياسين بمبتدع لما أنشأ هذا الرباط للاعتزال لعبادة الله، بل كان يسلك طريقةً سلكها قبله أهل الخير حيث يقول الله تعالى بعد بسم الله الرحمن الرحيم: >> يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ >> <sup>5</sup>.

ذكر السلوي صاحب الاستقصا أن الفقيه عبد الله بن ياسين لما دخل لبناء الرباط دخل معه سبعة نفرٍ من جدالة وابتنى رابطةً هناك وأقام في أصحابه يعبدون الله تعالى ، أما ابن خلدون فيصف لنا هذا الرباط وارتحال ابن ياسين إليه بقوله: >> واطرحوا عبد الله بن ياسين واستصعبوا عمله وتركوا الأخذ عنه لما تجشموا فيه من مشاق التكليف، فأعرض عنهم وترهب وتنسك معه يحيى بن عمر بن تلاكاكين من رؤساء لمتونة وأخوه أبو بكر، فنبذوا عن الناس في ربوة يحيط بها النيل <sup>6</sup> من جهاتها ضحضاحا <sup>7</sup> في المصيف وغمرا في الشتاء، فتعود جزرا منقطعة،

<sup>4</sup> - أبو عبيد الله البكري: المصدر السابق ، ص 164. ويواصل البكري حديثه عن وصف قبيلة جدالة بقوله: >> وخلف بني لمتونة قبيلة من صنهاجة تسمى بني جدالة وهم يجاورون البحر ليس بينهم وبينه احد وهذه القبائل هي التي قامت بعد الأربعين وأربعمائة ، بدعوى الحق ورد المظالم وقطع جميع المغارم وهم على السنة متمسكون بمذهب الإمام مالك >>.

<sup>5</sup> - سورة آل عمران، الآية 200.

<sup>6</sup> - والمقصود بها الجزيرة موضع إقامة الرباط في السنغال .

<sup>7</sup> - الضحضاح هو الماء القليل يكون في الغدير وغيره والضحل مثله وكذلك المضحضح وقيل هو الماء اليسير وقيل هو ما لا غرق فيه ، وقيل هو الماء إلى الكعبين أو إلى نصف الساق ، وماء ضحضاح أي قريب القعر. ابن منظور: المصدر السابق ، ص 2557.

فدخلوا في غياضها منفردين للعبادة وتسامع بهم من في قلبه مثقال حبة من خير فتسايلاوا إليهم ودخلوا في دينهم <<<sup>8</sup> .

كما يعرف المرابطون باسم المثلثين حسب رواية عديد المصادر التي تناولت سيرتهم وتاريخهم بهذا الاسم ومن أمثال هؤلاء المؤرخين ابن الأثير وابن عذارى وصاحب الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية . وقد عُرفت دولة المرابطين بدولة الفقهاء نظرا للدور الذي لعبه الفقهاء ليس في بدايتها فحسب وإنما ظلت سلطة الفقيه موازية لسلطة السياسي ، وعن دور الفقهاء في دولة المرابطين يذكر ابن عذاري المراكشي في حديثه عن الفقيه ابن ياسين : << وكان أشدهم انقيادا له ( أي عبد الله بن ياسين ) أمير لمتونه يحي بن عمر >><sup>9</sup> ، كما أورد ابن عذاري عن الأمير يوسف بن تاشفين قوله : << كان يفضل الفقهاء ويعظم العلماء ويصرف الأمور إليهم ... ويقضي على نفسه بفتياهم ( أي بفتواهم ) >><sup>10</sup> ، وسار على نهجه ابنه علي بن يوسف بن تاشفين حيث كان << لا يقطع أمرا في جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ، كما كانت أمور المسلمين راجعة إليهم ، وأحكامهم صغيرها وكبيرها موقوفة عليهم >><sup>11</sup> .

كان المرابطون في البداية حركة دعوية فقد ذهب الفقيه عبد الله بن ياسين إلى الصحراء رفقة الأمير يحي بن عمر اللمتوني وبدأت حركة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتعليم الناس الإسلام الصحيح ، ولما كثرت أتباع الفقيه ابن ياسين في الرباط الذي أسسه خرج في جموع من أتباعه لفرض الإسلام فتوفي الأمير يحي بن عمر اللمتوني في إحدى المعارك سنة 447 هـ فخلفه أخوه أبو بكر بن عمر ومضت

<sup>8</sup> - عبد الرحمن ابن خلدون : المصدر السابق ، ج 6 ، ص 243.

<sup>9</sup> ابن عذاري المراكشي : المصدر السابق ، ج 4 ، ص 09.

<sup>10</sup> - المصدر السابق ، ج 4 ، ص 46.

<sup>11</sup> - عبد الواحد المراكشي : المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق : عمران المنصور ، دار

الكتب العلمية ، بيروت ، 1998 ، ص 121.

جيوش المرابطين فاتحة عدو مدن مثل درعة ، السوس ، اغمات ، تادلا ، كما جاهدوا برغواطة التي خرجت عن تعاليم الشرع وابتدعت شرائع أخرى ، وقد استشهد عبد الله بن ياسين أثناء هذه الحروب 450 هـ . وبعد أن ظهر صراع بين لمتونة ومسوفة في الصحراء سافر إليهم أبو بكر بن عمر لإصلاح ذات البين وتولى قيادة الجيوش المرابطية يوسف بن تاشفين الذي صار رجل المرابطين الأول . أستفحل أمر يوسف بن تاشفين بالمغرب ورسخت قدمه في الملك فقرر بناء مدينة تكون عاصمة لملكه وحصنا منيعا لجيشه فبنى مدينة مراكش سنة 454 هـ<sup>12</sup> ، غير أن صاحب الاستبصار قال ببنائها سنة 459 هـ ، أما ابن عذاري المراكشي وصاحب الحلل الموشية فقالا ببنائها سنة 462 هـ ، بينما يرجح المستشرق الألماني يوسف أشباخ تاريخ 463 هـ/1071 م ، أما ياقوت الحموي صاحب معجم البلدان فيقول ببنائها سنة 470 هـ/1077 م .

وقد أجمعت المدونة التاريخية على صلاح الأمير المرابطي يوسف بن تاشفين وسداد رأيه ، فقد ذكر لنا الصفي بعض خصال يوسف بن تاشفين بقوله : >> كان أحد ملوك البلاد، دانت بطاعته العباد ، واتسعت ممالكه وطال عمره، وقل أن عمر أحد من ملوك المسلمين والإسلام كما عمّر... وكان يحب العفو والصفح وفيه عدل وخير وكان معتدل القامة، نحيف حفيف العارضين ، دقيق الصوت ، حازما ، سائسا >><sup>13</sup> . بعد ذلك قويت شوكة يوسف وشرع في توسعته في المغرب الأقصى ثم وصلت سطوته إلى المغرب الأوسط فامتد ملكه حتى جزائر بني

---

<sup>12</sup> عبد الرحمن ابن خلدون : المصدر السابق ، ج6، ص245؛ ابن أبي زرع الفاسي : روض القرطاس ، ص138 ؛ لسان الدين بن الخطيب : معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار ، تحقيق : محمد كمال شبانة ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، 2002 ، ص161 ؛ السلاوي : المصدر السابق ، ج2 ، ص22 .

<sup>13</sup> الصفي: الوافي بالوفيات ، تحقيق : احمد الأرنؤوط وتركي مصطفى ، ط1 ، دار أحياء التراث العربي ، بيروت ، 2000 ، ج29، ص73 .

مزغنة ثم عاد يوسف إلى مراكش . ثم استغاث به مسلموا الأندلس فلبى النداء وجاز بجيوشه البحر وهزم الفونسو السادس في وقعة الزلاقة 479 هـ ، وبعدها ضم الأندلس لملكه وقضى على ملوك الطوائف وبذلك صارت دولته تمتد إلى العدوة الأندلسية .

في سنة 500 هـ توفي يوسف بن تاشفين فخلفه ابنه علي بن يوسف الذي كان ورعا تقيا محبا للعلماء متواضعا لرعيته ، وقد واصل علي بن يوسف حروبه مع النصارى في الأندلس فحارب مملكة قطلونيا وبرتغال وقشتالة فانتهصر في معارك مثل اقليش 501 هـ وفحص البكار سنة 528 هـ وانهمزم في أخرى مثل موقعة القلاعة سنة 523 هـ ، كما قامت في عهد علي بن يوسف عدة ثورات وتمردات أضعفت الدولة وأنهكتها مثل ثورة المعاهدين النصارى سنة 519 هـ وتمرد والي فاس سنة 500 هـ غير أن اكبر ثورة أنهكت الدولة المرابطية هي ثورة الموحدين التي بدأها المهدي بن تومرت وأكملها عبد المؤمن بن علي الكومي والتي أفضت إلى تلاشي دولة المرابطين فيما بعد ، وقد توفي علي بن يوسف سنة 537 هـ .

بعد وفاة الأمير علي بن يوسف سنة 537 هـ خلفه ابنه تاشفين بن علي الذي تقلد الحكم في ظروف عصيبة فقد تفاقمت الثورات والتمردات وأهمها ثورة الموحدين التي أوقد جذوتها المهدي بن تومرت وواصلها من بعده عبد المؤمن بن علي الكومي الندرومي ، إذ صارت للموحدين اليد الطولى على كثير من المناطق ، وقد و توفي هذا الأمير سنة 539 هـ .

بعد وفاة تاشفين بن علي بايع الناس ابنه إبراهيم بن تاشفين غير أن عمه إسحاق بن علي رفض هذه البيعة ودعا لنفسه ووقع الخلاف والتناحر بينهما مما أضعفهم واسقط حكمهم على يد الموحدين سنة 541 هـ ، الذين استولوا على العاصمة مراكش ، وبعد إستيلائهم عليها وفدت جميع القبائل من المصامدة بأسرها واستوثق أمر المغرب لعبد المؤمن بن علي ولم يبق له منازع .